

محمد أمين بن جيلالي

هيغل و العلاقات الدولية : التمفصل المعرفي
و التمثل الجدلي

هيغل، في العلاقات الدولية: منظور جدلي للظواهر الدولية، ونظرية سياسية للحقل، افترضت أن النشاط الدولي لابد أن يخضع للنظرية المعيارية، لكن في نفس الوقت، لا ينفي النظرية الوضعية. بأكثر دقة، السير نحو توليف وتركيب يطرح البديل الاستيمولوجي والمنهجي في دراسة السلم والحرب، وذلك من منطلق واحد هو توليد الاعتراف من رحم الصراع، والعكس بالعكس، في ديمومة للارتقاء نحو رؤية شاملة للعلاقات الدولية في العالم المعاصر.

الكلمات المفتاحية: هيغل، النظرية السياسية، العلاقات الدولية، الجدلي، التركيب، الصراع، الاعتراف.

Mohamed Amine Bendjilali

Hegel and International Relations : Epistimologic Articulation and the Dialectic Representation

Hegel in international relations; a dialectical perspective of international phenomena. Is a political theory of the field, assuming that the international conduct must be subject to Normativism, but at the same time, it does not negate Positivism. More precisely, it is moving towards a synthesis laying down an epistimological and methodological alternative in. The study of peace and war, And that is to say is generating recognition from the womb of the conflict, and vice-versa, In constant concern to promote a comprehensive vision of international relations in the contemporary world

Keywords: *Hegel, political theory, international relations, Dialectic, synthesis, conflict, recognition.*

هيجل والعلاقات الدولية: التمفصل المعرفي و التمثل الجدلي (**)

Hegel and International Relations : Epistimologic Articulation and the Dialectic Representation

محمد بن جيلالي (*)

أستاذ مساعد "أ"، المركز الجامعي أحمد زبانة غليزان - الجزائر



مدخل تيليولوجي⁽¹⁾:

إنزاحت وجهة هيجل نحو ضبط علاقة نسقية مع علم العلاقات الدولية بعد إشتغاله على الفكر السياسي وفلسفاته النظرية، وهذا بدايته ومآله طبيعة النظرية الهيجلية القائمة على منهج الجدال الذي لامس كل أقاليم التفكير العلمي والفلسفي. إنَّ تركيز أطروحة هيجل في السياسة والدولة والقانون برز في إتجاهين علائقيين؛ السياسة الداخلية (علاقة الدولة بالمجتمع المدني) والسياسة الخارجية (علاقة دولة بدولة أخرى). لكن المتأمل يجد نفسه ضمن متاهة إبستمية في دراسته للنظرية السياسية عند هيجل لأنها تحمل بُعد «بين-تخصي»، مُتَعَذِّرة عن الموضوعة والتصنيف، فاقدة للهوية والمحل في خارطة المعرفة السياسية.

(*) البريد الإلكتروني: « Amine.bendjilali@yahoo.fr »

(*) نشرت هذه المقالة بترخيص من مجلة "منيرفا" Menerva الصادرة عن مخبر انثروبولوجيا الاديان ومقارنتها، بجامعة تلمسان، العدد المزدوج 4-5 / 2016، (ص-ص. 35-54).

(1) التيليولوجيا (Teleologie) مصطلح ابتكره "ولف"، قصد به علم الغايات، وظف في هذا السياق لتحديد غاية البحث ووجهتها ضمن نسق علائقي. أنظر:

أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، تر: خليل أحمد خليل (بيروت: منشورات عويدات، م3، ط2، 2001)، ص. 1430.

وعلى هذا الأساس نسعى للكشف عن الوجه الآخر المتواري لهيغل من خمسة مناطق أساسية تمثل بؤر التماس الإشكالية والإلتباس المعرفي بين هيغل والعلاقات الدولية: أولاً، إرتحال هيغل من الفكر السياسي إلى النظرية السياسية للعلاقات الدولية. ويبرز ذلك جلياً في بحث هيغل عن تصور جديد للقانون الدولي؛ منتقداً آراء كانط الواردة في رسالته: «من أجل سلام دائم»، كما وجه نقده للمحاولات الأولى¹ التي قام بها بعض رجال القانون في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر من أجل تكوين قانون دولي عام ينظم العلاقات بين الدول المستقلة⁽²⁾؛ ثانياً، المفارقة البارزة بين الواقعية (*Realism*) والطوباوية (*Utopianism*) في التفكير السياسي عند هيغل المتصل بالعلاقات الدولية وقضاياها⁽³⁾؛ ثالثاً، السؤال النظري عن الإضافة المنهجية التي قدمها «الديالكتيك» (*Dialectic*) للدارس في العلاقات الدولية، وماذا عن «فلسفة الحق» في تحليل هذا الحقل؟؛ رابعاً، إستنتاج أهم الروابط النقدية بين الفكرة الهيجيلية حول «نهاية التاريخ» من جهة (يرتبط هذا المفهوم إرتباطاً وثيقاً بفرائسيس فوكوياما الذي نشر كتابه «نهاية التاريخ والرجل الأخير» عام 1991)، والدولة العالمية من جهة أخرى؛ خامساً، نقد المفهوم المطلق للحرب؛ باعتبارها «شراً مطلقاً»؛ وأيضاً مشكلة الآخر و«الصراع من أجل الإعراف» (*The Struggle For Recognition*) فيما يتعلق بتاريخ العالم.

يتطلب تناول هذه المناطق الحساسة في التفكير السياسي للعلاقات الدولية عند هيغل أن نبحث عن الخيط الناظم الذي يوحد الحدود بين هاته الاستفهامات الفكرية، ويرسم هيغل كمفكر له باع

(1) هذه المحاولات باءت بالإخفاق حتى قيام عصبة الأمم سنة 1919، بل وحتى قيام هيئة الأمم المتحدة سنة 1945 غداة الحرب العالمية الثانية وهذا ما يتوافق مع رؤية هيغل، حين إعتبر أن القانون الدولي هو إطار لما يجب أن يكون، وليس لما هو قائم فعلاً.

أنظر: عبد الرحمن بدوي، فلسفة القانون والسياسة عند هيغل (بيروت: دار الشروق، 1996)، ص 220.

(2) المرجع نفسه، ص 220.

(3) Tony Burns, «Realism and Utopianism in Hegel's Political Thought: National Sovereignty, International Relations and the Idea of a 'World State'», *Working Paper Series*, Centre for the Study of Social and Global Justice, School of Politics & International Relations, University of Nottingham, p.17.

طويل في إثراء وتطوير علم العلاقات الدولية على المستوى الأنطولوجي، الاستيمولوجي والمنهجي. قبل ذلك يجب أن نقرأ هيغل في سياقه «الأكسيموري» (من مفردة *oxymore*)، والمقصود بها التناقض الظاهري المتولد من بيئته الشخصية، وفي مناجزته لتوازنات واختلالات الظرف الدولي خلال عصر التنوير في ألمانيا وأوروبا عامة.

أولاً: البيو-ثقافة الدولية في الزمن الهيجلي: الإشتراطات الجدلية والتوازنات الدولية.

إنّ حياة هيغل⁽¹⁾ وعصره هما «نسيج من التناقضات» (Contradiction)، فقد كان التنوير المُوغل في الإيمان بالعقل على وشك الأفول، في الآن نفسه، الرومانسية الغارقة في العاطفة والخيال بادئة في البروغ. لقد عاش هيغل في وسط مجتمع إقطاعي تسوده رجعية النبلاء الذين يعترضون الطبقة الوسطى إعصاراً، لكنّه أيضاً يميل مع رياح الثورة الفرنسية التي تهبّ عاتيةً مناديةً بتحرير الإنسان وإنطلاقه⁽²⁾.

إذن، كان الطابع العام للعصر الذي نشأ فيه هيغل، هو فكرة التناقض التي يمكن أن نجد لها أصول فلسفية عند الإغريق مع هيرقليطس في العود الأبدى المحتضن للثبات والتغير، أو مع أفلاطون في جدله الصاعد والنازل... هذا ما حرر لنا ما يعرف عند هيغل «بالأوفوبوغونية»⁽³⁾

(1) غيورغ فلهلم فريدرش هيغل Georg Wilhelm Friedrich Hegel (شتوتجارت 1770 - برلين 1831)، فيلسوف المثالية الألمانية في القرن التاسع عشر، بحيرة عظمى تفرعت عنها: الماركسية، الوجودية، الهيجيلية الجديدة، البروتستانتية المتحررة، لُقّب بنابوليون الفلسفة الذي كوّن إمبراطورية عقلية كبرى بمذهبه الفلسفي، الذي يمكن نعتة بالنسق الشامل المنفتح بإستقرار على القراءات المتعددة، متكامل ومنسجم في وحدته، متعدد في آفاق وأعماق فكرته الأساس (العقل الكلي أو الروح المطلق). خاصة عندما يَطرُق التحليل الهيجلي مشكلات وقضايا العلاقات الدولية، كالسلم، الحرب، العدالة والحرية...إلخ.

أنظر: هيغل، أصول فلسفة الحق، تز: إمام عبد الفتاح (القاهرة: مكتبة مدبولي، م1، 1996)، ص4.

(2) هيغل، محاضرات في فلسفة التاريخ: العقل في التاريخ، تز: إمام عبد الفتاح (بيروت: التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، م1، ط3، 2007)، ص9.

(3) تعني هذه الكلمة في أصلها الفعل (Aufheben): يُلغى ويحتفظ ويرفع. ما يبحث عنه هيغل في مسار التاريخ هو «ألفغوهوبان» كلمة ألمانية تقنية تعبّر عن إرتفاع شيء ما إلى المستوى التالي، أن ترتفع فوق المعضلة الحالية وتنتقل إلى المرحلة التالية من التطور حيث تسمو فوق الصعوبة الحالية وتحلها من خلال فرضية جديدة ذاك هو الإختبار، التوليفة هي إختبار «ألفغوهوبان». العبارة العصية (Das Aufheben) وتصريفاتها في النص الهيجلي الإشتقاق من «نسخ»، متى تعلق الأمر بمصدر = (Die Aufhebung) والإنتساح، متى تعلق بالفعل المُنعكس على الذات (Das Sichaufheben) [...]، النسخ يتضمن

المتأسسة على الحوار بين السلب (Negation) والإيجاب، في شكل تجاذب أو تنافر، نفي وإثبات. الأمر الذي سلاحظه يتكرر في قانون الجدل الماركسي المتمحور حول فكرة «نفي النفي»، ووحدة الأضداد وصراعها».

أمّا عن السياق الدولي الذي احتك به هيغل خلال نهاية القرن الثامن عشر فقد تبدّى في إنتظام الدول الأوروبية داخل مبدأ توازن القوى لأجل الصالح العام. وغالباً ما كانت المصلحة الذاتية، حافز للدول على إنشاء تحالفات لكبح القوى المنافسة. لكن واقع السعي وراء مبدأ توازن القوى روج لفكرة «الصالح العام» التي كانت أكبر من «المصلحة الذاتية للدولة»، وبالتالي العمل وفق الإمثال لآلية نظام واحد، تُحرّكه مؤسسات وممارسات متكاملة هي: القانون الدولي (والذي عدّ تدويناً قانونياً لممارسات عرفية راسخة)؛ والإعتراف بشرعية السلطة السيادية الداخلية؛ وقبول مبدأ عدم التدخل؛ والحضور الدبلوماسي الدائم والحوار المتواصل؛ وأخيراً اللجوء إلى حربٍ محدودة⁽¹⁾ كوسيلة لتعديل الإختلال في التوازن. إذن لم يكن هناك نظام يقى من الحرب، لكنّها كانت حرباً محدودةً هدفها تقليص قوّة الدولة المقصودة لا تدميرها كلياً.⁽²⁾

مثلت هذه الإشتراطات الجدلية والتوازنات الدولية النابعة من صميم الواقع، تحدي قوي لهيغل لمناظرة العقل المفكر في السياسات الدولية والداخلية على حدّ سواء، ومن هنا نبّت النظرية السياسية عند هيغل والتي كانت منبثقة عن تمفصل المعرفة الفلسفية بالمعرفة السياسية، حيث برزت في

دلالات النفي والإلغاء، الإحتفاظ والإبقاء على شيء مما يُنفي، [...] التضاد بين زوال شيء في المنسوخ وبقاء شيء منه، أنظر:

هيغل، فينومينولوجيا الروح، تر: ناجي العنولي (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2006)، ص.ص. 105-106.

(1) الحرب المحدودة (Limited War)؛ يعود هذا المفهوم إلى المنظرين العسكريين "كلاوفيتز" في القرن التاسع عشر وخليفته في القرن العشرين "ليدل هارت" على العلاقة الحاسمة بين الغايات السياسية والوسائل العسكرية. «ينبغي أن تكون الأهداف السياسية، والدوافع الأصلية للحرب، معياراً لتحديد كل من هدف القوة العسكرية وحجم الجهد لتحقيقها». في منتصف الحرب العالمية الثانية جاء مفهوم الحرب الشاملة كبديل بعد تطور الأسلحة النووية.

Khurshid Khan, «Limited War Under the Nuclear Umbrella and its Implications for South Asia», p.3,

(<http://www.stimson.org/images/uploads/research-pdfs/khurshidkhan.pdf>).

(2) دافيد باوتشر، النظريات السياسية في العلاقات الدولية: من ثيوسيديدس حتى الوقت الحاضر، تر: رائد القاقون (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، المنظمة العربية للترجمة، 2013)، ص.ص. 591-592.

الحصول ضمن قالب جدلي (*Modèle dialectique*). إن النموذج الجدلي يستمد أصله من فلسفة التاريخ عند هيغل، التي يمكن أن نتمنحها مسوغاً أنطولوجياً تاريخياً للبحث في علاقة هيغل بعلم العلاقات الدولية.

ثانياً: الأركيولوجيا التاريخية للعلاقات الدولية عند هيغل: بناء منطق تاريخي.

لقد اقترح دافيد باوتشر وجود ثلاث تقاليد نظرية (الواقعية التجريبية، النظام الأخلاقي العالمي والمنطق التاريخي)، ترتبط فيما بينها جدلياً وتوفر معايير مختلفة لسلوك الدولة⁽¹⁾. والمنطق التاريخي هو الآخر يتضمن جدل رسم معالمه هيغل في رؤية العالم (*weltanschauung*) نحو تغيره. في تقديره أن مفهوم «العالم» عند هيغل يوازي كينونة العلاقات الدولية، لأن الشعوب في ظل «إنوجادها» تميزت بطابع العلاقات الثقافية والحضارية والتاريخية التي تستوجب التفاعل في إطار الحرب أو السلم، وعليه هذا العالم له «تاريخ» ينشد التحقق الفعلي للروح الهيجلي، وتُميزه «جيوستاسيا» المناطق التي حددها هيغل حسب أولياتها الزمنية والمنطقية (الشرق، اليونان، الجرمان، الرومان). إذن تاريخ العالم هو التحقق الفعلي للروح داخلياً وخارجياً على حدٍ سواء. كما يبدو أن الروح الكلية هو الوعي الذاتي الذي يبدو في ضرورته متصلاً في الموضوعي الذي يُجزء الكل المطلق للروح، وعليه فتاريخ العالم ضروري من منطلق أنه «محكمة التاريخ» (إختبار حقيقة الكلي في الجزئي)، وهذه تُوافق الإعتبار المنهجي الذي يسير وفقه الباحث في العلاقات الدولية؛ «التاريخ مخبر علم العلاقات الدولية». إرتكزت الهندسة الهيجيلية للعالم الكلاسيكي على مبدأ التطور التاريخي المستند بدوره على العقل أو ما يعرف عنده «العقل في التاريخ»، حيث شكلت هذه المقاربة الواردة في «محاضرات في فلسفة التاريخ»، تشكيل جديد للتناول الاستيمولوجي لمواضيع الفكر السياسي والنظرية السياسية عند هيغل جعلت الباحث يتعاطى مع الظواهر والشخصيات الفكرية السياسية، بمنهجية تحليلية نقدية، لا تاريخية فقط تركز على كرونولوجيا الأحداث، دون الربط السببي والتحليل المنطقي والحجاج الفلسفي.

(1) المرجع نفسه، ص. 97.

فإذا كان التاريخ في نظر هيغل هو تطور الروح في الزمان، كما أنّ الطبيعة هي تطور الفكرة في المكان. فإنّ نتيجة ذلك تعدد الثقافات والحضارات والأمم⁽¹⁾. وبالتالي هذه الفكرة تُسوِّغ ضرورة تواجد كينونة للعلاقات الدولية، واحدة في جوهرها، متعددة في تعيّناتها. من هنا تنبجس للعيان عند هيغل نماذج وبرايدغمات متقابلة تسعى إلى اقتفاء الصورة الحقيقية لعالم العلاقات الدولية، بعيداً تماماً عن الرؤية الكوسموبوليتانية التي تراعي الأخلاق العالمية، لأن كل نموذج يعبر عن رؤية حضارية معينة يريد فرض منطقها على الأمم الأخرى. لفهم المآل التاريخي ينبغي العودة إلى التكوين الجينيالوجي للعلاقات الدولية عند هيغل، بحيث سنقترح على هذا النحو نموذجاً هيغلياً للعلاقات الدولية تسير وفق تدرج وتدرج تاريخي، وعليه طبعت العلاقات الدولية في تصور هيغل أربع نماذج، نقتصر على ذكرها في التالي:

أ- البراديجم الشرقي:

يتمظهر في هذا النموذج مجتمعات طبيعية يحكمها نظام أبوي «بتريركي وثيوقراطي»، يفتقد للتقسيم الداخلي، ويحكم للدين الذي يعدّ دستوراً وتشريعاً، في نفس الوقت. فالأوامر الدينية والأخلاقية أو العرف، والمعاملات هي القانون الإيجابي الطبيعي. في هذه المرحلة ثلاثى الشخصية الفردية وتفقد حقوقها وسط تألق هذا النظام بوصفه كلاً، أما عالم الطبيعة الخارجي فهو إلهي. تتطور هذه الخصائص إلى عادات وحكومة ودولة في جوانبها المتعددة وتصبح في حالة عدم وجود القانون، وبساطة العرف، طقوساً مضطربة ومحشوة بالخرافات، وألواناً من المصادفات لحكم تعسفي، كما تبلور الاختلافات الطبقة لتصبح طبقات مغلقة وراثية. ومن ثمّ لا يوجد في الدولة الشرقية شيء ثابتٌ محدّد، فهذه الدولة لا تستمر إلاّ في حركة خارجية، هي في النهاية إكتساح وخراب أساسيين، وليس سلامها الداخلي سوى سلام حياة غير سياسية وإنغماس في الضعف والإجهاد.⁽²⁾ بنظرة خاطفة حول جوهر العالم الشرقي نرسم خارطته السياسية والاجتماعية وفق معالم ميّزت بنائه

(1) مونس بخضرة، تاريخ الوعي: مقاربات فلسفية حول جدلية إرتقاء الوعي بالواقع (بيروت: الدار العربية للعلوم، بيروت، ط1،

2009)، ص 263-264.

(2) هيغل، أصول فلسفة الحق، مرجع سابق، ص 606.

وعلاقاته، فالنظم اللاهوتية هي دستور للنظم السياسية، والجماعة هي بوتقة تسري في ثناياها حياة الفرد، وعلاقة الشرق بالأمم الأخرى يحكمها النظام الإلهي. إذن، العلاقات الدولية في العالم الشرقي حسب هيغل هي انعكاس لإنعدام صورة الفرد في المجتمع، فالدولة الشرقية تتحرك ككتلة أخلاقية ودينية وعرفية في مواجهة التحديات التي تفرضها الشعوب الأخرى.

ب-البراديغم الإغريقي:

تعددت أوصاف اليونان للعالم البربري بأنه همجي وقديم ومتوحش، والدليل على ذلك هو عالم تنعدم فيه الديمقراطية على خلاف العالم اليوناني المنظم، المتماثل، والمحدود بالبحر، الذي يتمتع بالحرية والديمقراطية. إعتقد اليونان بأنّ البرابرة هم بالطبيعة عبيد وأنّ الأساليب البربرية في الحياة غير مقبولة كلياً لدى اليونان والفرس، لذلك كان من المستحيل تصور علاقات وثيقة بين اليونان والفرس، فقد إعتبرت الحرب ضد الفرس حرباً مقدّسة أي أنّ الآلهة باركتها، وبأنّ الحرب الوحيدة المفضّلة على السلام، هنا إشارة واضحة من هيغل إلى نبذ الحروب التي كانت تندلع بين الحين والآخر، بين المدن اليونانية، بينما عندما تصبح هذه الحروب ضد الفرس الذي يمثل الآخر فإنّها تُفضل عن السلام. في ظل هذا المناخ المشحون والمُشبع بكره الآخر، نشأت الفلسفة السياسية الكلاسيكية اليونانية كمنافٍ عنيدٍ لكلّ ما كان شرقياً. وعليه فقد كان التركيز الهيجلي على عبقرية اليونان كإقتراضٍ مُسبق بأنّ الشرق يمثل نفيّاً أو مصدراً للخطر، وفي هذا السياق إبتدع كل من أفلاطون وأرسطو نوعاً من السياسة تكاد تكون فيها فكرة المجال الحيوي⁽¹⁾ مقدّسة حيث إستلزمت تلك الفكرة إقامة معالم للتمييز بين الداخل والخارج.⁽²⁾

(1) المجال، يعني موقع ومساحة في لغة الجغرافي، أهداف إقليمية في لغة الجيوبوليتيكي، وبذلك يصبح حيواً. أنظر: ظاهر عبد الزهرة الربيعي، «الوزن الجيوبوليتيكي للمساحة في إسرائيل: دراسة تطبيقية»، مجلة آداب البصرة، ع56، كلية التربية، جامعة البصرة، (2011): ص.264.

(2) عبد الله بوقرن، «الآخر في جدلية التاريخ عند هيغل»، أطروحة دكتوراه العلوم في الفلسفة، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، قسم الفلسفة، جامعة قسنطينة، السنة الجامعية: 2006 - 2007، ص.ص.19-20.

ج-البراديغم الروماني:

يُشبه "جون كريستوف روفان" *Jean Christophe Rufin* في كتابه «الإمبراطورية والبرابرة الجدد» الوضع الدولي السائد ما بعد الحرب الباردة بنظيره المثال في العصر الروماني، لا سيما بعد إنتصار الإمبراطورية الرومانية في حروبها ضد القرطاجيين خلال القرن الثاني قبل الميلاد. فالإمبراطورية الأمريكية اليوم أضحت بعد إنتصارها التاريخي على الإتحاد السوفياتي (سابقاً) تتبوأ نفس المنزلة التي كانت تحتلها الإمبراطورية الرومانية بالأمس البعيد: إذا كانت روما تجسد السلم والإستقرار، وتتميز بوحدة السلطة والثقافة وبتقيد بالقانون وتجسد العدالة (إمبراطورية قانونية)، عكس البرابرة الذين كانوا مشتتين، مُولعين بالقوة والعنف ولا يفكرون إلا في الحروب. فإن واشنطن بوصفها الوريث الشرعي لروما ومن ورائها الغرب الرأسمالي أصبحت حالياً هي الأخرى مصدراً للإستقرار والأمن، سيادة القانون والإشعاع الحضاري العالمي، في حين ما زال الآخرون (بقية العالم) يعانون من مآسي الأصولية المتطرفة، المجاعة، الأوبئة...، تحت نير أنظمة إستبدادية فاسدة. من حيث الشكل تبدو الولايات المتحدة الأمريكية في النظام الدولي الجديد بإعتبارها تمثل المركز الرئيسي المؤثر في العلاقات الدولية والقطب الأوحده المهيمن على حركة التفاعل الدولي بمثابة «الشمس» في «النظام الشمسي»، أما الدول الكبرى (الأطراف) فهي تشبه «السيارات» الرئيسية المحيطة «بالشمس». في حين أن بقية الدول الأخرى (أطراف الأطراف) فهي بمنزلة «الأجرام والتوابع» المرافقة لبعض «السيارات» في «النظام الشمسي» ككل⁽¹⁾. هذا التوصيف⁽²⁾؛ يزيحنا إلى فينومينولوجيا للعلاقات الدولية الراهنة حينما نقارنها بسابقتها لدى الرومان، روما=الولايات المتحدة

(1) بلخيرة محمد، «براديغمات العلاقات الدولية المعاصرة: المركزية الغربية نموذجاً»، أكاديميا للدراسات الاجتماعية والإنسانية، قسم العلوم الاقتصادية والقانونية، جامعة الشلف، ع10، (2013): ص.82.

(2) نجد هذا الوصف الفينومينولوجي عند هيغل في محاضراته عن فلسفة التاريخ، لما أشار إلى العالم الفلكي الألماني يوهانس كبلر Johannes Keppler (1571-1630) المتأثر بمبادئ كوبرنيكوس وكذلك لتيكو براهي Tycho Brahe، من أبرز القوانين التي توصل إليها هو العلاقة الرياضية بين الزمن اللازم لدوران كوكب ما حول الشمس دورة كاملة. أنظر: هيغل، محاضرات في فلسفة التاريخ: العقل في التاريخ، مصدر سابق، ص.138-139.

الأمريكية، كلاهما شيء نفسه له قصد واحد هو بناء إمبراطورية عظمى تسير في نسق جدلي محوره السلم والحرب في أقنوم مصلحة ذاتية للدولة المركز تغيب مصلحة الدولة الهامش.

د-البراديجم الجرمانى:

قيل أنّ هيجل يُجَدِّد الدولة البروسية التي ينتهي عندها التاريخ في نظره، مع أنّه من المفروض أنّ هيجل توقّف عند الدولة البروسية لأنّها «الحاضر» الذي تصادف أن عاش فيه الفيلسوف الألماني، وهذا الحاضر هو القمة التي يبلغها تطور التاريخ البشري، لكنّه ليس نهايته⁽¹⁾. هو نموذج يُورّخ للعلاقة بين الشعب الجرمانى والشعب اليهودي، الأول له رسالته السياسية المحتمية بقوة العقل، والثاني يبحث عن مصيره في العالم المحتذية بالإيمان والاعتقاد بمقولة «شعب الله المختار».

من ثم، تعتبر فلسفة التاريخ عند هيجل المرحلة المثالية لحلّ التناقض الموجود بين الحداثة العقلانية والإيمان وذلك من خلال إحلال مفهوم المطلق لفهم سياق الدولة الحديثة. في هذا الصدد يرى هايرماس أنّ الوعي الهيجلي بقضايا الحداثة أصبح اليوم حاضراً بوضوح، حيث أنّ هذا الوعي رسم المبادئ التوجيهية المتواجدة حالياً في مناقشات ما بعد الحداثة. هذا بكلّ بساطة لأنّ الحداثة عند هايرماس «مشروع لم يكتمل بعد»⁽²⁾.

ترتيباً على ما تقدم تبلور رؤية هيجل للعلاقات الدولية بمنظور تاريخي جدلي، يحتزل فيه حركة الطبيعة والمجتمع، التي تعود في الأصل الى حركة الفكر ذاته، ونشاطه نحو التقدم والنشوء والارتقاء. الارتقاء من أدنى الطبقات التاريخية وهي الشرق إلى أعلاها وهو الجرمان، من هنا الأركيولوجيا التاريخية. نصبو من العنصر اللاحق إلى نسج روابط نقدية بين الفكرة عند هيجل وعالم السياسة والعلاقات الدولية تحديداً، هذا في إعتبار أن أبرز المشكلات السياسية والدولية التي عاجلها هيجل في نظريته السياسية هي محك جدل ومحل مقارنة.

(1) المصدر نفسه، ص.ص. 165-166.

(2) André-Marie Yinda Yinda, «Penser les relation internationales Africaines des problèmes aux philosophèmes politiques aujourd'hui», Polis, R.C.S.P. / C.P.S.R. Vol. 8, Numéro Spécial, 2001, p.1.

ثالثاً: الفكرة الهيجيلية: التمهيدات والتمثيلات.

ينبغي تفصيل (Articulation) الفلسفي بالسياسي عند هيجل في جانبه «البين - تفاعلي» للدولة، عند الإنطلاق من الفكرة التي تشكل نواة نظرية صلبة من فلسفته للتاريخ وهي «الوعي الذاتي»، لنصل إلى مرحلة تمثلها للواقع بأشكاله الفردية والجماعية. فنرى كيف تتمفصل الآثار الفلسفية الهيجيلية في ممارسة العلم داخل الوحدة السياقية والمنهجية للعلاقات الدولية.

قبل ذلك؛ لا يسعنا أن نفهم كلياً نظرية هيجل في العلاقات الدولية من دون الإحاطة بمشروعه الفلسفي الأشمل. فقد كان مهتماً بالتغلب على جميع «الثنائيات» التي تعوق إحراز المعرفة الأصلية، وسعى هيجل إلى أن يُقَوِّضَ منهجياً الإستيمولوجيا التقليدية (رونيه ديكارت وإيمانويل كانط)، وأخضع المقدمات المنطقية التجريبية والعالمية لتحخيص نقدي تفكيكي⁽¹⁾. في البداية ينبغي إستحضار أهمية التصور الفلسفي الكانطي في تشكيل الفكرة الجدلية وامتدادها إلى حقل العلاقات الدولية عند هيجل؛ ففي المادة الثالثة من «القانون العالمي وشروط الضيافة العالمية، الواردة في وثيقة إيمانويل كانط Immanuel Kant (كونيغسبرغ 1724 - كونيغسبرغ 1804 : «من أجل سلام دائم.. ترتهن متانة أو وثاقه العلاقات بين الشعوب، بوجود فكرة القانون العالمي التي ستبقى خيالية ورمزية إن لم تبني القانون المدني وقانون الأمم، يجب أن ترتقي هذه الفكرة إلى قانون إنساني عام، الذي يحقق السلام الأبدي»⁽²⁾ وُصف هيجل بأنه أحد النقاد الكومونتاريين (Communitarians) لمفهوم السلام الدائم⁽³⁾. حيث نهض هذا الأخير ضد ديمومة السلام عند كانط بإقتراضه لتغير السلام إلى حرب، والحرب إلى سلام، في عود أبدي. إذن كانت هذه المقاربة النقدية عند هيجل في رؤية كانط للسلام العالمي مفتاح للولوج إلى تحليل العلاقات الدولية بالمنهج الجدلي، وهناك ما يؤكد أن للهيجيلية امتدادات وإشارات في الحقل، نذكر منها على سبيل المثال:

(1) دافيد باوتشر، النظريات السياسية في العلاقات الدولية: من ثيوسيديدس حتى الوقت الحاضر، مرجع سابق، ص 636-637.

(2) Essai Philosophique, «sur la paix perpétuelle Immanuel Kant avec préface de ch.L emonnier» (Paris : G.Fischbacher Libraire éditeur, 1880), p.27.

(3) مارتن غريفشيس، تيري أوكالاهان، المفاهيم الأساسية في العلاقات الدولية (دبي: مركز الخليج للأبحاث، 2008)، ص.250.

أولاً؛ أنّ النظريات المعيارية في العلاقات الدولية تعود جذورها إلى فلاسفة بارزين من أفلاطون، أرسطو، كانط، هيغل وماركس. فحسب براون *Brown* (1992) تمثل هذه النظريات -وعلى رأسها نظرية هيغل- تقاليد عريقة في الفكر، وإطار نظري شامل في دراسة حقل العلاقات الدولية، يتركز على فلسفة أخلاقية ونظرية سياسية، حيث تم التخلي عن هذا الإطار مؤقتاً عندما انحرف الحقل نحو الاتجاه السلوكي (*Behaviouralist Direction*)⁽¹⁾. وهذا بالرغم من أنّ الفهم الحدائي لهانس مورغوثو *Morgenthau Hans* (1904-1980)؛ عالم سياسة أمريكي من أصل ألماني، مؤسس المدرسة الواقعية في العلاقات الدولية، له مؤلف «السياسات بين الأمم، 1948»، كان مقوضاً للقيم والمعايير التي كانت مقيدة لسلوك الفرد والدولة. حيث أزاح مورغوثو أفكار هيغل الواردة في فينومينولوجيا الروح (1807)، وفلسفة الحق (1821) وحذر منها، لأنها أغفلت مخاطر تجانس المجتمع الناجمة عن المساواة والمشاركة العالمية في المجتمع، والتكرار للمجتمعات التقليدية لأنها لم توفر مصدر بديل للهوية⁽²⁾. ثانياً؛ ترتدّ أصول النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت إلى النظريات الحديثة للوعي والديالكتيك فترة التنوير⁽³⁾. فالبعد الأخلاقي لنظرية الفعل التواصلية عند يورغن هابرماس مستوحى من/ متجذر في نظرية هيغل عن الوعي الذاتي والإعتراف أو تشكيل الهوية، والنضال من أجل وحدة الوعي الذاتي، والإعتراف الداخلي وأثره في الأحداث الخارجية، وعلاقة المجتمع المحلي بالعالم. وبعبارة أخرى، يشير هابرماس مقتضياً بهيغل إلى أن النضال من أجل الإحترام والشرف والكرامة يمكن أن يؤثر على تفاعلنا مع الآخرين.⁽⁴⁾

فعلاً؛ لقد كان هيغل أصل معرفي يندرج في فصل ثقافي هو ثقافة النظر والتحليل، التي تعد ثقافة أكاديمية نسقية تمنح الباحث في الحقل أدوات منهجية وتكتيكات معرفية واستراتيجيات تحليلية. فالنظرية المعيارية (*théorie normatif*) التي كان هيغل من مؤسسيها استوعبت النطاق النظري

(1) Tim Dunne, Milja Kurki, and Steve Smith, *International Relations Theories: Discipline and Diversity* (United Kingdom : Oxford University Press, 3ed Edition, 2013), p.41.

(2) *Ibid*, p.68.

(3) *Ibid*, p.172.

(4) *Ibid*, p.176.

للعلاقات الدولية؛ إذ، أنّ المثالية تمثل بداية للتنظير المعيارى، والنظرية النقدية ترمز إلى العودة نحو المعيارية والقيم في تحليل العلاقات الدولية. وكل ذلك رغم هيمنة البراديغم الواقعي في الحقل، الشيء الذي فرض سياق جدلي بين الاتجاهات الوضعية والمعيارية، التفسيرية والتكوينية، وما انتهى عن ذلك هو تشكيل إتجاه توليفي وتركيبى في حقل العلاقات الدولية.

رابعاً: إنعكاس التوليفة الهيجيلية على التطور المنهجي والنظري لعلم العلاقات الدولية.

تتصل مناقشة وجهات نظر هيغل حول العلاقات الدولية على وجه الخصوص بالمناقشة التي جرت مؤخراً بين «المجتمعين» و«العالميين» داخل حقل النظرية السياسية⁽¹⁾. ومنذ أن برز هيغل باعتباره فيلسوفاً ومنظراً سياسياً في نظرية العلاقات الدولية خلال تفسيره لأسباب الحرب، ونتيجة للجدل الحاصل حول هذه الظاهرة، بدأت تظهر «معالم الحل الوسط في الحقل للتوفيق والتوليف بين الحجج البنائية والحسابات العقلانية المادية»⁽²⁾ إنّ الإعتبارات الهيجيلية حول العنف هامة، لأنّ لها علاقة بالأسباب الاجتماعية والثقافية والعقلانية للحرب، وبالموازاة وعن كُتب، أضافت البنائية مؤخراً هذه العوامل في تحليلها للعلاقات الدولية دون تحييد الأسباب المادية. أيضاً الدولة عند هيغل في «تحققها هي الفكرة الأخلاقية»⁽³⁾ إستمر هذا التعريف لدى مدارس العلاقات الدولية لكنه شهد إضطراباً. مثلاً؛ الوطنية (*patriotism*)، اعتبرت سبب ونتيجة للحرب على حدّ سواء، هذه الأخيرة التي تؤدي بدورها إلى نزاعات بين الدول، وحالة حب الوطن هي أحد الآثار الجانبية لها. على خطى هيغل، يشير ألكسندر ويندت *Alexander Wendt* (مؤسس النظرية البنائية الاجتماعية في

(1) Tony Burns, Realism and Utopianism in Hegel's Political Thought: National Sovereignty, International Relations and the Idea of a 'World State', *Op. cit.*, p.3.

(2) «Middle Ground Between Constructivist Accounts And The Rational-Material Accounts» ; Joseph Mackay and Jamie Levin, «The case for Hegel in International Relation Theory: Making War and Making States», Departement of Political Science, *University of Toronto*, p.1. See link: « www.cpsa-acsp.ca/papers-2010/MacKay-Levin.pdf ».

(3) Georg W.F Hegel, *Hegel's Philosophy of Right*, Trans. T.M.Knox (London : Oxford University Press, 1942), p.228.

العلاقات الدولية) عام 1999 إلى أن التفاعلات بين الدول، وبين الوكالات والهياكل، تساعد على تمييز وتباين طبيعة النظام الدولي.⁽¹⁾

إنّ حجج المدرسة البنائية عام 1992 هي أنّ الدول كانت تحدد هويتها: من هي؟ وما هي مصلحتها؟ فيما يتعلق بالدول الأخرى داخل النظام الدولي، وتنص على وضع توقعات وهويات بناءً على التفاعلات. هذه الأخيرة يمكن أن تتغير مع مرور الوقت «من حرب هوبز إلى سلام كانط، والعكس بالعكس»⁽²⁾، حسب ويندت هذا يتوقف على طبيعة التفاعل بين الدول: صراع أو تعاون. إذن؛ فقد إرتبطت الأسباب الفكرية للحرب عند هيغل بالنقاش المتعلق بالعلاقات الدولية في المدرسة البنائية، هذا التقاطع، يتمُّ عن حضور الحجج المعيارية (*normative argument*) والتفسير العلمي الاجتماعي (*social scientific explanation*) للصراع جنباً إلى جنب، مما يجعل التأكيد الهيجلي بأنّ حماية إستقرار الهويات الوطنية يمكن أن يكون بمثابة تفسير للعنف المنظم في غياب تفسير لأساس المصلحة الذاتية⁽³⁾. بوقفة تحليلية للتقاطعات الموجودة بين هيغل والنظرية البنائية؛ نلاحظ أنّ نسقية هيغل حاضرة داخل الصرح البنائي، لأنّ الجدل الهيجلي في حدّ ذاته بنائي، يهدف الى تركيب قضية جديدة تستأنف وتستكمل الرهانات النظرية والواقعية للظاهرة محل الدراسة في العلاقات الدولية.

يقدم هيغل أساسه لإعتبار الحرب من خلال السياسة الداخلية والهوية الوطنية. والحرب بدورها مرتبطة حسب هيغل بتكوين الدولة (*State Formation*)، أي الترابط السببي بين صناعة الدولة وصناعة الحرب. وهذا كذلك عند هيغل يمكن أن يساعد على شرح أهمية القومية

(1) Joseph Mackay and Jamie Levin, «The case for Hegel in International Relation Theory: Making War and Making States», *Op. cit.*, p14-15.

(2) *Loc.cit.*

(3) *Loc.cit.*

(Nationalism) والحرب القومية (Nationalistic War) جنباً إلى جنب مع أسباب الإمبريالية من وجهة نظر عقلانية.⁽¹⁾

إنّ مقارنة هيغل لقضايا العلاقات الدولية في «فلسفة الحق» تمثّل مقاربتة لفهم العلاقات البينية للأفراد. ويعتبر «الفرد» في كل حالة بوصفه الكيان المُعبّر عن الحكم، هذا الشخص يسعى إلى الاعتراف «بالآخرين»، وفي حالة الفرد أطروحة الدولة هي دول أخرى. أبلغ صاحب أطروحة «الصراع من أجل الاعتراف» في «فينومينولوجيا الروح»، أنّه لا بد من إعادة معرفة الأسباب الأصلية للصراع الدولي، وفي نفس الوقت، لن يتمّ أبداً حلّ هذا الصراع، فحسب هيغل لا يوجد على المستوى العالمي حالة المعاملة بالمثل. إذا كان النضال من أجل الاعتراف، بين الأسياد والعبيد، له نتائج على المستوى الأدنى في إنشاء نوع من الدولة، يعيش ضمنها المواطنون أحراراً ومتساوين، في إطار واحد هو القانون السامي، فإن هذا -مع إصرار هيغل- لم ولن يحدث دولياً⁽²⁾. هذا التداير والتقابل بين إمكانية الاعتراف واحتمال الصراع، يضع هيغل في خانة المنظرين لظواهر التعاون والصراع الدوليين، إذ يحاول هيغل أن يخرج بإمكانات تحليلية تجعل الباحث بارعاً في تفكيك مثل هذه التناقضات النظرية التي في جوهرها تحمل توافقات واقعية.

لقد أخذ على فلسفة هيغل أنّها برّرت إخضاع مصالح الفرد لمصالح الدولة، والتي تستند سلطتها إلى القوة الغاشمة كلياً، والتي تُقيم علاقاتها مع الدول الأخرى ضمن خواء أخلاقي وتنظّمها عبر مبدأ «الجبروت هو الحق»، لكن تشديد هيغل كان على الجبروت «الروحي» أو المعنوي لا المادي للدولة. فهو يرى أنّ للحرب بعض الفوائد الإيجابية ويُقرّ بشرورها الواضحة في آن واحد، وبدلاً من أن يكون مروّجاً شريعياً عديم الإحساس لمذهب «الجبروت هو الحق»، ومزدرياً لـ«القانون الدولي»، أخذ هيغل يبدو متحسّراً على أن مثل تلك القيود الرسمية لم تعد كما ينبغي أن تكون عليه. وتطلع عوضاً من ذلك إلى الأعراف والأشكال المختلفة من الاعتراف المستندة إلى الأسرة، والجماعة، والمجتمع المدني، والدول في علاقاتها المتبادلة ككثيرات مقيدة⁽³⁾. فوفقاً لهيغل، يكمن سبب الحرب الرئيس

(1) Joseph Mackay and Jamie Levin, *Op. cit.*, p.01.

(2) Tony Burns, *Op. cit.*, p.12.

(3) دافيد باوتشر، مرجع سابق، ص.ص. 631-633.

في طبيعة الدولة الفريدة الممثلة في حكم ذاتي يحمي الهوية المجتمعية لسكانها. فالشعب وليد وسط معين، وهو يملك تاريخاً، لغةً مشتركةً، عادات، أهواء وقواعد سياسية وإجتماعية محدّدة، ولا يمكن لهويته أن تشمل البشرية جمعاء. فبالنسبة لهيغل، تندلع الحروب نتيجة نزاع بين طريقتين متضاربتين للحياة. وحتى عندما تتعاون الدول، تبقى أهدافها ومصالحها نصب عينها. فيمكن توقيع المعاهدات وإقامة التحالفات، لكنّها تدوم بدوام المنفعة التي تجلبها على رفاه الأطراف المتعاقدة.⁽¹⁾

إذن؛ ينبغي تصور هيغل لثنائية السلم والحرب على طبيعة الرؤية الإدراكية للدولة، فالرؤية القائمة على إدراك مبدأ التعاون تشكل منطق السلم في العلاقات الدولية، أما الرؤية المرتكزة على إدراك مفهوم الصراع فهي منطق الحرب في العلاقات الدولية. وأصل التعاون والصراع عند هيغل فلسفة الحياة لكل شعب، أي طريقة العيش معاً، إذا حدث توافق في طريقة الحياة أو تضارب... وهذا راجع كلّ إلى أهداف ومصالح كل طرف. لفهم هذه الفكرة لابدّ من الرجوع إلى السياق التاريخي الذي ولدت فيه الفكرة الهيغلية حول الدولة.

نستنتج من هذا التحليل الموسّع أنّ هناك أبعاد نظرية ومنهجية على العلاقات الدولية إحدى مسوّغات الطرح الداعي لإدراج هيغل في المناقشات المؤسّسة للحقل، بينما لا أحد يختلف في أنّ العمل النظري كمنجز هيغلي في العلاقات الدولية لا يُصنّف ضمن المكانة التحتية⁽²⁾. من هنا يمكن التحوّل على النظرية الهيغلية لأنّها ترتقي إلى تأسيس براديغم معياري ينافس ويناجز البراديغم الوضعي في حقل العلاقات الدولية. رغم أنّ هيغل في نظريته السياسية ينطلق أفلاطونياً (مثالياً) وينتهي أرسطياً (واقعياً) في تفسيره لنشأة الدولة الحديثة.

خامساً: الدّولة الهيغلية: حقيقة الدّولة والقانون الدولي؛ الحرب صيرورة وضرورة.

إنّ الدولة عند هيغل تقوم على أساس القانون، الذي يمثل العقلانية، ويجب التركيز هنا على: «أنّ ماهية الدولة هي القانون، فإنّنا لا نقول قانون الأقوى، أو قانون الرغبة، أو قانون المروءة

(1) مارتن غريفشيس وتيري أوكالاهان، مرجع سابق، ص 250.

(2) Joseph Mackay and Jamie Levin, *Op. cit.*, p.01.

الطبيعية، بل قانون العقل، الذي به يمكن لكل كائنٍ عاقلٍ أن يتعرّف على إرادته العاقلة، صحيحٌ أنّ الدولة تظهر لدوائر الحق الفردي، والعائلة، وحتى دائرة مجتمع العمل، كضرورة خارجية، كقوةٍ عليا، لكن من جهة أخرى، الدولة هي الغاية المُلازمة لهذه الدوائر، وقوتها تكمن في وحدة هدفها النهائي الكلي، والمصالح الخاصة لأفرادها».⁽¹⁾ كما أنّ الدولة عند هيغل، تقوم على الحرية كبدأً وعمل، وذلك لأنّها تتشكّل على أساس الإرادة، ضمن فلسفة الحق، والتي ماهيتها الأساسية الحرية، والدولة الفضلى بنظر هيغل هي الملكية الدستورية، لأنّها مركزية وقوية من جانب إرادتها، ولا مركزية من جانب المصالح الاقتصادية، وهي دولة بلا تدخل ديني، وهي ذات سيادة مطلقة في الداخل والخارج، وهذه هي الدولة الحديثة. ويفهم هيغل الدولة في مرحلتها هذه، والتي تُعدّ مرحلة إنتقالية إلى الدولة العالمية، على شكل دولة ملكية دستورية، لأنّ المبدأ الذي يُقرّر السيادة لا يمكن أن يكون إلّا في مُلك، ويمكن قبول تعيينه بالولادة أو أيّ أسلوب آخر.⁽²⁾ في فلسفة الحق (*Philosophy of Right*) يتحدث هيغل عن «فكرة الدولة» بمنطق «تكاملي ثلاثي»، في كثير من الأحيان يُعتقد (صواباً أو خطأً) أن تكون «الهيغلية» المتقدمة: «أطروحة»، «نقيض» و«التركيب» «منهج جدلي مُطبّق على الظواهر: «مثلاً، الدولة بوصفها الفرد الكائن التي تعتمد على الذات والدستور، العلاقة بين دولة ودول أخرى يحكمها قانون دولي».⁽³⁾

في تحديده لمعنى الحرب وضرورتها، يُفند هيغل أن الحرب تُناقض مفهوم الدولة، بدعوى أنّ مهمة الدولة هي المحافظة على أرواح المواطنين والحرب تدمر أموالهم، ويرد هيغل على هذا القول بأن يقول: «لا ينبغي أن نعدّ الحرب شراً مطلقاً.. بالحرب يُحافظ على الصحة الأخلاقية للشعوب في عدم إكترائها للأموال غير المحددة وفي مواجهة العملية التي بها هذه الأمور غير المحددة تستقرّ عادات وتُصبح ثابتة، مثلاً أنّ حركة الرياح تُحافظ على المياه في البحيرات من خطر التعفن الذي يُصيبها به

(1) علي عبد الحمداوي، الفلسفة السياسية: كشف لما هو كائن، وخوض في ما ينبغي للعيش معاً (بيروت: منشورات ضفاف، ط1، 2015)، ص.171.

(2) المكان نفسه.

(3) Tony Burns, *Op. cit.*, p.17.

السكون المستمر، وهذا هو ما يحدثه للشعوب السلام المستمر، وبالأحرى السلام الدائم»⁽¹⁾. ويُستفاد من هذا الموضع أنّ هيجل يرى في الحرب: أولاً؛ أنّها حالة طبيعية، تنسف بالأمر العرضية، والعرضي مآله حتماً إلى الزوال. ثانياً؛ الحرب دافع إلى التطور والتغيير، فلو لا الحرب لأصاب الشعوب الغبن والفساد. ثالثاً؛ كلّما طالت فترة السلام إزدادت أسباب إنحلال الشعوب، والسلام الدائم - إن وُجد - سيؤدي إلى فناء الإنسانية.⁽²⁾

أمام هذا التحليل، نستدعي تحليلنا الخاص في إعتبار فردنة الدولة نتويج للنواة النظرية التي اعتمدها هيجل داخل نسقه الفلسفي الشامل وهي «جدل الفكرة»؛ القضية الأولى، الفرد؛ القضية الثانية، الدولة؛ التركيب، فردنة الدولة. يحيلنا هذا التركيب إلى معنى أساسي مرتبط بنزع القداسة عن الهيئات السياسية التي تدير شؤون الدولة، فالدولة تفتقد شخصيتها المعنوية حينما تتحول إلى فرد لها سلوك سياسي معين، خصوصاً وأنّ الجهاز المفاهيمي عند هيجل يفرق بين الحق والقانون، فالحق هو نسيج من العادات والأخلاق والأعراف والدين تحقق الفعل، والقانون خيط رفيع من هذا النسيج. فالقانون هو الذي يضمن التحقق الفعلي لهذه الأنسجة، سواء بالنسبة للسيادة الداخلية أو السيادة الخارجية. ولا يمكن أن نضع الدولة والحرب في صورة متناقضة، لأنّ الحرب هي وقود العملية البنائية للدولة في نظر هيجل. وفي هذه اللمحة أيضاً نشير إلى أنّه يمكن أن يتكرر نموذج الفردنة في المدرسة السلوكية، عندما إختزلت هذه الأخيرة سلوك الدولة في سلوك الفرد وبرز عندها ما يسمى «السلوك السياسي» كوحدة تحليلية.

إنّ هيجل في نظرية العلاقات الدولية، على الرغم من أهميته المركزية في النظرية السياسية، كثيراً ما يفتح على قانون العلاقات الدولية⁽³⁾. ينطلق هيجل في تأسيسه للقانون الدولي على فكرة بسيطة، كما أشرنا سابقاً، وهي «فردنة الدولة»، لأنّه يعتبر أنّ الفرد يتمثل ويتشاكل مع الدولة في مسألة الحرية والاستقلالية.

(1) عبد الرحمن بدوي، مرجع سابق، ص 214-215.

(2) المكان نفسه.

(3) Joseph Mackay and Jamie Levin, *Op. cit.*, p.01.

يقول هيغل: «إنّ للدولة فردية، وهذه الفردية توجد جوهرياً بوصفها فرداً، وفي الحاکم بوصفها فرداً واقعياً مباشراً» (البند 321)⁽¹⁾. والفردية، بوصفها وجوداً - من أجل ذاته مستبعداً للغير، تتجلى في علاقتها مع الدول الأخرى، التي كل واحد منها مستقلة بالنسبة إلى سائر الدول. ومعنى هذا أنّ الإستقلال هو جوهر أية دولة، وأنّه من الوهم أن تحاول دولة إدماج دولة أخرى في داخلها سواءً بالغزو أو بالتفاهم الودّي، لأنّ هذا الإندماج سيؤدي إلى فقدان الدولتين روحهما وكيانهما الحقيقي الجوهري. ومن هنا فإنّ التاريخ شهد محاولات لإدماج دولة في أخرى، بيد أنّها أخفقت إخفاقاً ذريعاً ولو بمرور فترة طويلة من الزمن. وهذا هو ما يفسر إنحلال الإمبراطوريات: المصرية القديمة، اليونانية التي خلفها الإسكندر المقدوني، إمبراطورية شارلكان (كارل الخامس)، إمبراطورية نابوليون، ... الإمبراطورية الروسية التي تفككت في عامي (1990-1991)⁽²⁾.

إذن يشير هيغل إلى سبب عدم واقعية القانون الدولي العام حينما يقول: «إنّ القانون الدولي العام ينتج عن العلاقات بين دول مستقلة، وما هو في ذاته وبذاته يتخذ شكل ما يجب أن يكون، لأنّ وجوده الواقعي يقوم على إرادات مختلفة ذات سيادة»⁽³⁾.

الحديث عن تنازع الإرادات، يقودنا إلى تدقيق مفهوم الحرب الباردة التي اعتبرت في التحديد القاموسي والاصطلاحي «صراع أيديولوجي»، بيد أنّه يوجد إلتباس وغموض في فهم هذا المصطلح، خاصة في حقل العلاقات الدولية. في تقديري أنّ هذا الصراع ليس بين القوى الكبرى التي تمثل قُطبي الصراع وهي الولايات المتحدة الأمريكية والإتحاد السوفياتي، بل هو صراع بين مُدركات وقيم ومعتقدات وإرادات صنّاع القرار داخل كلّ وحدة سياسية في مواجهة الوحدة السياسية المجابهة. إذن الصراع الأيديولوجي أطرافه أفراد وليس دول. فالسلوك السياسي للدولة ما هو في الحقيقة إلّا

(1) Georg W.F Hegel, *Hegel's Philosophy of Right*, Op. cit , p.309.

(2) عبد الرحمن بدوي، مرجع سابق، ص.ص. 212-213.

(3) «International law springs from the relations between autonomous states. It is for this reason that what is absolute in it retains the form of an ought-to-be, since its actuality depends on different wills each of which is sovereign ».

Georg W.F Hegel, *Hegel's Philosophy of Right*, Op. cit., p.316.

تمثّل أنطولوجي (*Representation Ontological*) لإرادات الأفراد المتنازعة حول مصالح حيوية معينة. لقد كان للفلسفة الهيغلية حضور في إحدى كتابات المنظرين المعاصرين خلال فترة ما بعد نهاية الحرب الباردة، حيث وظفت في تفسير الديمقراطية كآخر نظام سياسي للحكم، وبها يُسدل الستار على التاريخ.

سادساً: هيغل، كوجيف وفوكوياما: ثالثاً النهاية في العلاقات الدولية.

كان لألكسندر كوجيف (*Alexandre Kojève* 1902-1968؛ فيلسوف سياسي روسي، مجدّد الهيغلية في فرنسا) في ثلاثينيات القرن العشرين، إسهام تمثّل في محاضراته بالمدسة التطبيقية للدراسات العليا (الدورة الخامسة) حول فلسفة الدين عند هيغل، خلال هذه الفترة أجرى قراءة لفينومينولوجيا الروح، التي كانت بمثابة مقدمة لقراءة هيغل اليوم.⁽¹⁾ يعتقد الأستاذ كوجيف أنّ هيغل كان ينتظر من نابليون أن يُرسي «دولة كليّة ومتجانسة» يتطابق قيامها مع إكتمال الفلسفة الألمانية في النسق الهيغلي، وهذا يعني الدلالة على «نهاية التاريخ».⁽²⁾ انطلاقاً من هذه الفكرة يدعو فرانسيس فوكوياما (*Francis Fukuyama*؛ فيلسوف، إقتصادي وباحث في العلوم السياسية الأمريكية) إلى اعتماد مفهوم الإعتراف الذي أطلقه الفيلسوف الألماني هيغل، بالإضافة إلى نظرية التاريخ الغائي لتفسير تفوّق الديمقراطية الليبرالية في الساحة السياسية. فالنمو الإقتصادي يتعرّز في ظلّ الأنظمة السياسية المتنوعة والمتعددة بما فيها الفاشية والشيوعية، لكن الديمقراطية الليبرالية وحدها تلتقي مع حاجات الإنسان الأساسية كالإعتراف والحرية السياسية والمساواة. إنّ هيغل هو من إفترض أنّ نهاية التاريخ ستحل عندما ينجح البشر نوع الحضارة الذي يرضي رغباتهم الأساسية. بالنسبة إلى هيغل، نقطة النهاية هذه هي الدولة الدستورية. وفي نصه، يشير هيغل إلى أن نابليون كان الرائد في هذا المجال بداية القرن التاسع عشر. ويصرح فوكوياما قائلاً: «إننا بحاجة إلى اعتماد مثالية هيغل الفلسفية من جديد والتخلي عن فلسفة ماركس المادية وأتباعها، التي تقول إنّ

(1) Alexandre Kojève, *Introduction à La lecture de hegel* (Paris : Bibliothèque nationale, Galimard, 1947), p.07.

(2) رينيه سّرّو، هيغل والهيغلية، تر: أدونيس العكره (بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، ط 1، 1993)، ص.ص. 68-69.

الإشترابية ضرورية لتخطّي اللامساواة في المجتمعات الرأسمالية».⁽¹⁾ وعليه، يجد فوكوياما في نظريات هيجل تفهماً عميقاً لطبيعة الإنسان، لا توحى به أفكار فلاسفة كتوماس هوبز وجون لوك. في هذا الاتجاه، ينطلق فوكوياما من شبكة مفاهيمية أفلاطونية، فيعرض لـ«تيموس»، والذي ترجم إلى الروحانية، الشجاعة والرغبة. أما «الميجالوثيميا» فهي تيموس الرجال العظماء محركي التاريخ كقيصر وستالين. وأخيراً؛ «إيزوثيميا» وهي المطالبة المتواضعة بالإعتراف بواسطة المساواة لا التفوق، بناءً على ذلك يعد التاريخ صراع بين هذين الشغفين. ومن ينهي هذا الصراع هو عبقرية الديمقراطية الليبرالية الرأسمالية. إنّ جدلية السيد والعبد هي محرك أول للتاريخ الذي لا يمكن أن يشهد الاستقرار ما دام البشر منقسمين إلى سادة وعبيد. فلن يقبل هؤلاء إطلاقاً بصفة التبعية المنسوبة إليهم، وهنا تظهر عبقرية الديمقراطية في قدرتها على المصالحة بين أنواع الرغبة التي ذكرها أفلاطون؛ فتحلّ المساواة السياسية في المجتمع بدلاً من التفوق والسيطرة. وُجّه هؤلاء الذين يناضلون من أجل السيطرة هي فكرة إيجاد الثروة التابعة للفكر الرأسمالي وجمعها. ويعتمد فوكوياما أيضاً على تفسير فلسفة هيجل الذي قدّمه كوجييف، عن أنّ دولة الرفاه قد حلّت مشكلات الرأسمالية التي طرحها ماركس. وقد نجحت الرأسمالية في إزالة تناقضاتها الداخلية. بالإضافة إلى ذلك، هي لا تؤمن الإزدهار المادي فقط، إنّما أيضاً الأفكار والقيم المتجانسة وتُضعف إصطدام الأيديولوجيات بين الدول، لذا فهي تُقلّل من خطر الحرب والتهديد بها. إنّ هيجل نفسه لم يعتقد أنّ نهاية الحرب بين الدول قد تكون مُحتملة على الصعيد الدولي. إتفق كوجييف وفوكوياما على أنّه فيما تستمر الحروب، يُعزّز تجانسُ القيم بين القوى العظمى عملية السلام في الدول الكبرى، وهي الأهم على المدى البعيد.⁽²⁾

في كتابه «نهاية التاريخ والرجل الأخير» (1992)، يدرس فوكوياما الديمقراطية الليبرالية دراسة نقدية في بلدان أمريكا اللاتينية عام 1980، كمظهر من مظاهر النهاية بعد مسار أطول، والتي نشأت

(1) مارتن غريفشيس، تيري أوكلاهان، مرجع سابق، ص.ص. 446 - 447.

(2) المرجع نفسه، ص.ص. 446 - 447.

من رحم الثورات الفرنسية والأمريكية. يشير فوكوياما أنّ إنتشار وتطوير الديمقراطيات الليبرالية في جميع أنحاء العالم يمكن فهمه وفق مفهوم هيغل لـ«الإعتراف». ورداً على تصور فوكوياما، إقترح بريان ويلكوس Bryan Wilcox من جامعة نيوميكسيكو في مقاله: «أشكلة فوكوياما: القولبة الهايدجيرية كبديل للإعتراف عند هيغل في معالجة الديمقراطية في العالم»⁽¹⁾، يمكن الاستعانة برؤية هايدجر لشرح صعود وإستقرار الديمقراطية الليبرالية في العالم بأكثر دقة، فقد تميزت نهاية العصر الحديث أساساً ما قبل «النيتشوية»، بإرادة قوية للتحرر من قيود الميتافيزيقا، وعليه الديمقراطية الليبرالية في الدول هي نتيجة لرفض الميتافيزيقا، وليس الرغبة في الإعتراف الذاتي، على النحو الذي اقترحه فوكوياما من خلال تفسيره لهيجل، خاصة وأن هايدجر كان يسعى إلى تدمير الميتافيزيقا وتفجيرها من خلال مشروعه الأنطولوجي، وأشكلة أطروحة فوكوياما كانت ضمن هذا المسار عند بريان حيث أنّ أطروحة فوكوياما وصلت سقف الميتافيزيقا، لأنّ التاريخ البشري أثبت تناقضها كلياً.

الخاتمة:

يقتضي الأمر إعادة التفكير في هيغل والانفتاح على فكره، لقد أضاف هيغل المنهج الجدلي في تحليل ظواهر العلاقات الدولية، خاصة السلم والحرب؛ فهم العلاقات الدولية بمنظور جدلي يفترض أنّ الحرب ظاهرة طبيعية والسلم ظاهرة إنسانية، والانسان والطبيعة كلاهما ينتميان إلى حركة الجدل، فالانسان دائماً في صراع مع الطبيعة، لكن هيغل يبحث عن قانون في الجدل هو قانون التغير الأبدي والنشوء والارتقاء، هدفه إبقاء الصراع لكن في الآن ذاته، إخراجها من ديمومته. إنّ الدولة في نظر هيغل تتركز على العقلانية بيد أنّها متناقضة في مواجهتها للحرب وفي دخولها ضمن اعتبارات القانون الدولي الذي هو في الأصل غير واقعي يشهد اختراقات وتجاوزات، لذلك لا بد من طرح بديل إنساني يتجاوز صمغية القانون، هذا البديل هو الاعتراف الذي يستمد أصوله من السوسيولوجيا الحديثة.

(1) Bryan Wilcox, «Problematizing Fukuyama: Heidegger's 'Enframing' as an Alternative to Hegel's 'Recognition' in Studies of Global Democratization», *Conference Papers - New England Political Science Association*, (2012) : 1-9.

إن برادينغ الاعتراف في العلاقات الدولية ذو أهمية نظرية كبيرة لأنه يخفف من حدة الصراع الدولي، في الوقت الذي نجده مفارقاً لمقولة النهاية التي تحضى بمكانة هامة في فلسفة التاريخ البشري التي جاء بها هيغل ونقلها تيار ما بعد الهيغلية (*Post-hégélienne*) متمثلاً في كوجيف من خلال اكتمال النسق وفيما بعد طورها فوكوياما إلى نهاية التاريخ، وقد استمر هذا البرادينغ مع النظرية الاجتماعية النقدية في العلاقات الدولية، والذي اتجه نحو التنظير لظاهرة التعاون الدولي.

إنّ الديمقراطية المعاصرة المبنية على دولة الحق والقانون في العلاقات الدولية تمتد بأصولها إلى الهيغلية. إذ لا يمكن دراستها بشكل حقيقي إلا بالرجوع إلى النظريات المعيارية، وعليه فقد أسهم هيغل في تطوير الاتجاه التركيبي أو التكويني (*Constitutive Trend*) في العلاقات الدولية والتوليف بين النظريات العقلانية والنظريات البنائية لطرح رؤية شاملة في تفسير الظواهر الدولية.

